**المحاضرتان الخامسة والسادسة :**

**المستشرقون والمدارس النحوية .ظهر استعمال : مدرسة في المقدمة التي كتبها المستشرق (جوتولد فايل) لكتاب الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين لأبي البركات الأنباري المتوفى عام 577 للهجرة . فأطلق تسمية المدرسة البصرية والمدرسة الكوفية . ويريد ( فايل) بالمدرسة : الاشتراك في وجهة النظر الذي يؤلف الجبهة العلمية ويربط العلماء بعضهم ببعض على رأي واحد . (راجع مقدمة كتاب الإنصاف بتحقيقه وترجمة عبد الحليم النجار ، وكتاب : أبو زكريا الفراء ومنهجه في دراسة النحو واللغة للدكتور أحمد مكي الأنصاري 352 والمدارس النحوية للدكتورة خديجة الحديثي 21 )**

**ويريد كارل بروكلمان بالمدرسة : مجموعة النحويين الذين كانوا ينتمون إلى بيئة نحوية واحدة (ظ تاريخ الأدب العربي 2/ 124 – 135، ويميل إلى تقسيم المدارس النحوية إلى ثلاث مدارس:**

1. **البصرية .**
2. **والكوفية .**
3. **والبغدادية .**

**والبغدادية خلطٌ بين المدرستين ، ومالت إلى التوفيق بينهما والخروج بمذهب يجمع بين المدرستين , ويرى أن مدرسة الكوفة غلب عليها طابع جمع اللغة والنصوص 0**

**والذي يتأمل التراث النحوي الكوفي لا يستقيم له رأي بروكلمان في غلبة طابع جمع اللغة والنصوص على المدرسة الكوفية , وإنما نشا الدرس النحوي الكوفي في ظلال القرآن الكريم .**

**وكان الكوفيون ينطلقون من النص القرآني ويلتمسون ما يوافقه من لغة العرب , وطريقهم في ذلك السماع من فصحائهم , وقد عُنوا بكتاب الله ( عز اسمه ) على هذا المنهج من فاتحته إلى سورة الناس , وهم لم يهملوا النحو كما يفهم من عبارة بروكلمان وإنما أصّلوا نحو القرآن بما جمعوه من الأشباه والنظائر التي أخذوها من كلام العرب شعراً ونثراً , أما روايتهم للشعر وكثرة دواوين القبائل التي جمعوها فهذا معروف عنهم , ولكن لا يطمس فكرهم النحوي , ومن يقرأ معاني القرآن للفرّاء سيطالعه ذلك واضحاً0**

**أما رأيه في مدرسة بغداد فإن المعروف في تاريخ الفكر النحوي بروز مدرستين هما مدرسة الكوفة ومدرسة البصرة , وطابع مدرسة ا لكوفة قرآني , وطابع مدرسة البصرة الاعتماد على الشعر والعقل في تخريج النصوص , أما الدرس النحوي في بغداد فقد اتجه إلى التوفيق بين المدرستين ودليلنا عل ذلك : أن أبرز أعلام بغداد في الدرس كانوا عندما يذكرون البصريين يشفعون ذكرهم بعبارة ( قال أصحابنا ) كما ألمحنـــا 0**

**ومن يراجع مؤلفات أبي علي الفارسي وتلميذه أبي الفتح عثمان بن جني سيجد ذلك واضحاً فهما يذكران الكوفيين باسمهم ويذكران البصريين بالصحبة , فإذا كان أبو علي الفارسي(ت 377 ه) ، وابن جني(ت 392 ه) وهما من هما مكانةً في الدرس النحوي في بغداد يحرصان على الانتساب إلى البصرة في الرأي النحوي , فكيف يسوغ القول بأنهما أسسا مدرسة بغداد , وكذلك حينما نستذكر رأي الدكتور الأنصاري في كتابه : (أبو زكريا الفرّاء ومذهبه في النحو واللغة ) الذي أخذه فيه التحمس لصاحبه إلى القول : بأن الفراء ( رأس المدرسة البغدادية ) أو ( مؤسس المدرسة البغدادية ) , فهذا قول مردود لأن الفرّاء بقي يمثل في فكره النحوي مدرسة الكوفة وخلف أستاذه الكسائي على رياستها , والنزاع الفكري بين الكوفيين والبصريين في بغداد لم ينته , وإن خفّت حدته ببروز العلماء الذين كانوا يشددون في الدرس والطريقة الأوفق فجمعوا بين آراء الكوفيين والبصريين في بحوثهم ودراستهم 0**

**أما الدارسون من غير المستشرقين والذين تابعوهم فقد انقسموا بشأن المدارس النحوية , فمنهم من قال بمدرسة البصرة وحدها وجعل مدرسة الكوفة تبعاً لها , ومنهم من قال بالمدرستين فقط وألحق بهما بقية الجهود التي ظهرت في بغداد ومصر والشام والأندلس , ومنهم من أنكر فكرة المدرسة جملة وتفصيلاً كالدكتور إبراهيم السامرائي معتمداً على رأيه بأن فكرة المدرسة فكرة أوربية حديثة وليس للعرب مثل هذه المدارس 0**

**والذي نميل أليه كما ألمحنا أن الفكر النحوي شهد وجود مدرستين هما : مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة , ثم ظهرت جهود النحاة التي قاربت ما أبدعه البصريون والكوفيون بالدرس والشرح والتقريب والتبسيط , لأن الانتماء إلى المدرستين بقي قائماً حتى يومنا هذا , فالدارسون المعاصرون فيهم من يتبنى رأي البصريين وهناك من يتبنى رأي الكوفيين 0**

**الكوفة سكنها عدد كبير من الصحابة وإن الإمام علي ( عليه السلام ) لم يُقم في البصرة إلا قليلاً وأمضى عمره في الكوفة وهو الذي أشاع الدرس القرآني في هذه الحاضرة وشرّعه 0**

**وقد ابتدأ تشريعه بإقامة الدرس النحوي حفاظاً على القرآن الكريم في البصرة , ولكن تم تعميق هذا في الكوفة على أساس أن تلامذة الإمام ( عليه السلام ) والمقربين له من الصحابة قد تبعوه إلى الكوفة . وحينما تبحث في تاريخ الصحابة ووفياتهم ستجد أكثر الصحابة الذين سكنوا العراق توفوا في الكوفة 0**

**وقبل خلافة الإمام علي ( عليه السلام ) كانت الكوفة موئلاً للقرَّاء ويُستدل على ذلك بحقائق التاريخ بقولٍ للخليفة عمر رضي الله عنه حين بعث أحد عماله على الكوفة فقال له : ( إني مرسلك إلى قوم لهم دوي في قراءة القرآن كدوي النحل ) , وهذا يصور كثرة القرَّاء في الكوفة ومسجدها .**

**ومع القراءة وما عبرت عنه من تغير في ألفاظ الوحي يلاحظ الأثر النحوي والصوتي والصرفي في ذلك الاختلاف , ولكن الأبرز في محط العناية والنظر كان الأثر النحوي , لأنه – أي النحو – أخطر من الصرف والصوت في الأداء اللغوي من حيث ما يترتب عليه من آثار باختلاف الدلالة والفهم في كتاب الله ( عزَّ اسمه ) وهذا يفسر لك عناية العلماء بالدرس النحوي قبل عنايتهم بالدرس الصرفي والصوتي , ولو أن مسائل الصرف والصوت قد انطوى عليها علم تلاوة القرآن وترتيله , وهو علم يضرب بجذوره إلى المصطفى (صلى الله عليه وآله وسلم) فهو أول من رتَّل القرآن ترتيلاً استجابة لدعوة ربه ( جلَّ وعلا ) في سورة المزمل / 4 ( ورتّل القرآن ترتيلا ) 0**

**ولكن خطورة اللحن كانت في النحو أكثر من سواه ؛ لذلك كان القرَّاء الأوائل في الكوفة هم النحاة الأوائل الذين كانوا يسعون في تقعيد اللغة وشق سبل نحوها لأجيال المسلمين عرباً وسواهم 0**

**وعوداً على بدءٍ ، فحينما ننظر في مصطلح المدرسة النحوية نجد أن هذه الكلمة استعملت استعمالان : الأول : حقيقي , والثاني : مجازي , أما : الحقيقي فهو الذي يدل على مكان الدرس وطلابه وشيوخه وفي هذا فإن الإسلام قد شهد في تأريخه مؤسسة المسجد التي تشرفت بذكر الله ( سبحانه وتعالى ) وترتيل كتابه ودرسه وبحثه , وكان المسلمون يجلسون في المسجد بعد أداء الفرائض على شكل حلقة ليأخذوا العلم عن إمامهم , وأول من استنَّ هذه السُنَّة هو النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)  وطلب من الصحابة أن يتحلقوا حوله ليأخذوا عنه الوحي , ثم اتسعت هذه الحلقات مع بناء واتساع المساجد , فالمدرسة الحقيقية في الإسلام هي المسجد , فقد بُني النظام التربوي والتعليمي في الإسلام على مؤسستين ،كما ذكرنا ، الأسرة والمسجد , هذا بالنسبة إلى مفهوم المدرسة ودلالته الواقعية الحقيقية 0**

**أما الاستعمال المجازي ! فهو يعني أن شيخاً من الشيوخ يمثل مدرسة بنفسه دلالةً على غزارة علمه وفهمه وعن مجموعة من الشيوخ وتلامذتهم يمثلون المدرسة , وقد اشتهر في الفكر الإسلامي استعمال كلمة المذهب للدلالة على أصالة الرأي وحرية التفكير فيذهب الرأي مذاهب شتى وحينما يكون لهذا الرأي أتباع فيسمى باسم صاحب الرأي الأول الذي وسَّعه وبسَطه للناس وقد اشتهر هذا في الفقه الإسلامي , وعندنا مذاهب في الفقه كمذهب أهل الرأي في الكوفة ثم غلبت التسمية على العراق . وقد يشاع عن الرجل نسبته إلى رأي أبي حنيفة فيسمى ( حنفي ) . ومذهب أهل البيت – وهو أقدم – واشتهر باسم الإمام جعفر الصادق , وشاع المذهب فقيل لمن ينتمي إليه : ( جعفري ) وهذه في حقيقتها مدارس فقهية , لكن تعارف المسلمـون على كلمة (المذهب) أما استعمال المدرسة فهو متأخر بمفهومها المجازي واستعمالها بمفهومها الحقيقي ذكرت لك جذوره الأولى وقلت لك : إن التوسع في بنائها جاء لمواجهة الزحف الفاطمي فقد كان الفكر يجتاح المغرب العربي فسعى الأيوبيون وسواهم إلى وقف الزحف الفاطمي ببناء المدارس التي تمثل المدارس الأخرى وتدرس فقهها وفكرها وتوسع في ذلك صلاح الدين الأيوبي 0**

**وشهد تاريخ الدولة العباسية بروز تسمية (المدرسة المستنصرية) وهي مدرسة فيها قاعات الدرس وأماكن سكن الأساتيذ والطلبة وهي أقرب إلى مفهوم الجامعة في عصرنا , وآثارها باقية في بغداد , هذا بإيجاز تاريخ هذه القضية 0**

**ولو تأملنا ما كتبه الباحثون المحدثون نجد أنهم لم يخرجوا عن هذا , فمنهم من نفى مدرسة معينة أو تحامل على مدرسة الكوفة التي اتجهت نحو دراسة القرآن الكريم درساً وتمحيصاً في معرفة فقه أسرار العربية فيه , كانت قاعدة بحثهم اللغوي الانطلاق من نص القرآن ثم الذهاب إلى متن اللغة وهو محفوظ في لغة البادية , وتلك سمة النحو الكوفي وهو نحو القرآن 0**

**أما النحو البصري : فقد اتجهت البصرة اتجاهاً عقلياً انسجاماً مع بيئتها , فقد شهدت ولادة علم الكلام وهو علم الدفاع عن العقيدة الإسلامية وأساسه النظر في الآي المتشابهة في القرآن 0**

**هناك من يقول إن المنهج العقلي أقرب إلى طريقة التعليم لذلك تقبَّل الأعاجم النحو البصري بنزعته العقلية ولكون البصرة أقرب إليهم وهي الموئل الأول إليهم الذي يصلون إليه حينما يقصدون العراق0**

**وفي حقيقة الأمر أن اللغة تُكتسب بالحفظ والتكرار أي تكرار المحفوظ , وليس من المنهج العقلي في التعليم فقط , ولكن هنالك بواعث سياسية أدت إلى انتشار جهود علماء البصرة واجتهادهم وتقريبهم إلى السلطان الأموي إلى أن سقطت دولة الأمويين وجاءت دولة العباسيين , وكانت دعواهم كما هو معروف تُعزُّ وتُكرم آل بيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)  فقربوا علماء الكوفة ؛ لأنهم جاءوا إلى الكوفة في أول ثورتهم وقبلها أقاموا في ( الهاشمية ) وهي من حواضر الكوفة آنذاك قبل أن يتخذوا بغداد عاصمة لهم , ومع الأسف الشديد أن بعض مؤرخي النحو من المصريين خاصة حينما يكتبون عن هذه القضية أي : أثر السياسة في شيوع الدرس النحوي.فمعظم أولئك يغفلون أثر السياسة الأموية في شيوع الدرس البصري ويقفزون إلى أثر السياسة العباسية في شيوع الدرس الكوفي , ويكثرون من القول : إن البصرة عثمانية و الكوفة علوية 0 ولا صدقية لهذا القول كما صوروه في كتاباتهم , والشيخ الطنطاوي خاصة في كتابه : (نشأة النحو وتأريخ أشهر النحاة ) وقد تلمذ له الدكتور شوقي ضيف بإخلاص في كتاباته عن الدرس النحوي ( المدارس النحوية ) خاصة , على حين تدعو الموضوعية إلى نبذ العصبية والأفكار المسبقة التي يبحث لها عن صدًى في الدرس وإنما ينظر في الأشياء نظرة حيادية لأن ذلك وحده يقود إلى الفهم الصحيح , وأحق ما يطلق عليه اسم مدرسة لو أنه وجد صدًى في الدرس النحوي ما دعا إليه ابن مضاء الأندلسي من رؤية منهجية انطلقت من مذهب فقهي ينظر في ظواهر الكتاب والسُنَّة ولا يأخذ بسواهما من مباحث عقلية وهو المذهب الذي يصدق اسمه عليه , أي : المذهب الظاهري , فكانت دعوة ابن مضاء القرطبي الى إلغاء نظرية العامل ونبذ الاتساع في العلل والتعليلات والاكتفاء بالتعليمية منها , فهذا الدرس لو كُتب له البقاء والشيوع لكان أحق من سواه بتسمية ( المدرسة ) ولكن طُمس على هذا الدرس قرون عديدة إلى العصر الحديث , وبدء دعوة التيسير سواء عند المحدثين من العرب أو أساتذتهم من المستشرقين , وتلك مسألة تلفت نظر الباحثين إذ لم يُعنَ بدعوة ابن مضاء واستمر النحو بعده باتخاذ نظرية العامل والتعليلات مجالاً للدرس كما هو في مصر والشام 0**

**مداخلــــــــــــة**

**قال الدكتور رحيم الحسناوي في مداخلة معقباً : ( لو نفذ إلينا علم نحو الكوفة لنفذ إلينا علم كثير , لأن النحو الكوفي نحو ميسر لأنه يتصل بالقرآن الكريم لذا فهو يمثل واقعاً لغوياً حيَّاً , ومساحة الاستعمال اللغوي تتسع للفصحى بسبب القرآن الكريم ) أ.هـ**

**ومن الثابت لدى العلماء عن النحو العربي أنه نشأ وتطور في ظلال القرآن الكريم , وإن الباعث الأساس على تلك النشأة عصمة اللسان العربي من اللحن والفساد الذي نجم عن الاختلاط السكاني بين العرب وسواهم من الأمم الأخرى بسبب الفتوحات وانتشار الإسلام , وقد لاحظ ذلك أمير المؤمنين وخليفة المسلمين الإمام علي ( عليه السلام ) ومن منطلق واجباته الشرعية وحرصه على كتاب الله العزيز بدأ بوضع النحو بالرقعة التي نقلها أبو الأسود الدؤلي , وحفظت ذلك الخبر كتب التاريخ و الطبقات وإن اختلفت الروايات لكن الراجح بعد التحقيق العلمي صحة ما نُسب إلى أمير المؤمنين ( عليه السلام ) حينما ألقى الرقعة لأبي الأسود الدؤلي وقال له : ( انحُ بالناس هذا النحو ) وبقي الناس حتى يومنا هذا يسمون علم العربية بالنحو تيمناً بكلمة أمير المؤمنين ( عليه السلام )0**

**وحتى لا نستغرق في المسائل التاريخية نذهب سريعاً إلى تطور الفكر النحوي فنقول :**

**تلك البداية كانت في البصرة , وقد عُرف عن البصرة عنايتها بالبحث العقلي كما ألمحنا , وقد نشأ في أروقة جامعها الكبير علم الكلام , وهو علم الدفاع عن العقيدة الإسلامية واستوحى علماء البصرة من علوم الفقه وأصوله وعلم الكلام علل النحو وعنايته بالقياس وضم الأشباه إلى النظائر وكذلك السماع لكنهم استغرقوا في القياس وتوسعوا في الاستشهاد بالشعر , أما الكوفة فقد أصبحت على عهد أمير المؤمنين ( عليه السلام ) عاصمة الخلافة الإسلامية ونشأت فيها مدرسة الفقه وتفسير القرآن وازدهرت فيها القراءات القرآنية وذلك لكثرة الصحابة الذين استوطنوها قياساً إلى البصرة 0**

**ونشأ في الكوفة مذهب الرأي والتوسع بالقياس الفقهي الذي اشتهر به أبو حنيفة النعمان بن ثابت وكان تلمذ للإمام محمد الباقر ( عليه السلام ) والإمام جعفر الصادق (عليه السلام ) بالمدينة , وقال قولته المشهورة : ( لولا السنتان لهلك النعمان ) وهي مدة تلمذته في المدينة 0**

**فالبصرة لم تهمل السماع , والكوفة لم تهمل القياس لكن الخُلف في المنهج – كما سترى فيما بعد – ولنا أن نتساءل لماذا توسع الكوفيون في وضع قياساتهم ، وتوسعوا في السماع حتى ألصق بهم ذلك السماع ؟ والجواب لأنهم ينطلقون من القرآن الكريم ثم ينتقلون إلى اللغة , ولكن ما الذي دفع الباحثين وألصقوا القياس بالبصرة والسماع بالكوفة ؟ وهل هذا يجوز ؟**

**الجواب لا يجوز ذلك , ولكن يصدق الوصف أن البصريين انتصروا لقياسهم وتعصبوا له على حساب اللغة المسموعة , ولذلك ذهبوا إلى التأويل الذي يفسر النص انتصاراً للقاعدة , لذلك حينما ندرس موقف سيبويه من القراءات نجد ما يشبه اليقين أنه لم يطَّلع على جميع القراءات والدليل على ذلك أن أبا عمرو بن العلاء وهو شيخ البصريين كان يذهب إلى الكوفة ليتعلم القراءات القرآنية وقد توفي في إحدى رحلاته ودفن في الكوفة (رحمه الله) 0**